التصوف... الإشكالية ... الواقع و الآفاق

أ / العيد عـلاَّوي - المركز الجامعي الطارف الجزائر

كتب الرئيس الأمريكي ولسون قبل وفاته بأسابيع مقالا ختمه بقوله :" إن حضارتنا لا تستطيع الاستمرار في البقاء من الناحية المادية إلا إذا استردت روحانيتها"[1]

ملخص الدراسة :

- يعد التصوف أحد التيارات الفكرية التي جعلت سلوك الإنسان مناط الاهتمام ، بغية العروج به إلى مدارج الكمال ، و الخروج به من دائرة المادية إلى الروحانية و تزنية النفس . - فتعددت تعاريف العلماء له ، فمنهم من قارب الصواب ، و منهم من حاد عن سنن الاستواء .

- تأتي هذه المقالة لإماطة اللثام عن نشأة علم التصوف ، و الكشف عن أهم أعلامه ، و تحقيق القول في مفهومه و أنواعه ؛ من تصوف مذموم مرفوض - التصوف الفلسفي – ، وآخر محمود – التصوف الأخلاقي – وإبراز مجالات هذا النوع المحمود ، لتتوج المقالة بجملة من النتائج تفصح عن دور التصوف في نهوض الواقع ومواجهة العولمة والتحديات المعاصرة ، ومدى إسهامه في تهذيب السلوك الإنساني وتحقيق التنمية المستدامة.

summary

Mysticism is considered as one of the intellectual currents that focus on the importance of human behaviour, for the purpose of its degrees of completeness and take it away from materialism circle to spirituality and self recommendation . scientists , definitions and their own views varried . Some of them were in the correct side while others were for from normality . this intervention comes to look for the emergence of mysticism .reveals its famous leaders and achieves its sense and types . from rejected Mysticism (philosophical mysticism) to accepted one (Educational Morel Mysticism) And show the fields of this admissible type . to conclude the intervention by a series of results that represents the role of mysticism in the revival of reality . facing globalization and the contemporary challenges . in addition to its contribution in the cultivation of human behaviour and achieving sustainable development .

1- مقدمة :

جاء الإسلام لسعادة البشرية وهدايتها إلى طريق الهدى و الاستقامة ؛ إلى الطريق المستقيم ، و إخراجها من الظلمات إلى النور ، فدعا إلى التوازن و الوسطية و الاعتدال في جميع مجالات الحياة ، بما في ذلك الجانب العقدي و هو جوهر الدين و أساسه ، و كذا الجانب التعبدي الشعائري ، و الجانب المعاملاتي ، فكان ذلك دينا واقعيا في إيجاده ؛ إذ فرض على الإنسان ما يطيقه ولم يحمله مالا يطيق ، و فتح له باب المثالية للترقي و السير إلى الله بالتقرب إليه بالنوافل ؛ و معنى هذا أن الدين الإسلامي اهتم بالإنسان من حيث هو روح و من حيث هو جسد ، ووضع من التشريعات ما يكفل الصلاح لجسده و روحه ، و لم يكن كالمادية التي أغرقت في الاهتمام بالجسد على حساب الروح ، فأحاط الانهيار و البلاء بالأمم و المجتمعات ، و على غرار هذا أحاط البلاء و الفساد بالمذاهب و الطرق التي وقفت عند العناية بالروح ، فأغرقت في الرهبانية إغراقا مفرطا غير مدركة أن لها حقوقا و عليها واجبات .وقد تسرب شيء من هذا الفهم الخاطئ إلى أبناء الإسلام ، و سنحاول من خلال هذه المداخلة بسط بعض الإشكالات و في مقدماتها إشكالية التصوف من حيث المصطلح و الممارسة .

2- التصوف الإشكالية في الاشتقاق و المفهوم : أ- التصوف و إشكالية الاشتقاق : حظي التصوف بوصفه علما وباعتباره طريقا باهتمام من العلماء قديما و حديثا ، فكثرت تواليفهم حوله ، حتى أن شيخ الإسلام ابن تيمية أفرد له جزءا خاصا في كتابه مجموع الفتاوى ، وقد أجمع العلماء على أن كلمة "التصوف" مستحدثة ، و ذكر أنها أول ما أطلقت بالإفراد على ثلاثة من الزهاد الكوفيين ؛ هم أبو موسى جابر بن حيان 280هـ و أبو هاشم الكوفي ، و عبدك الصوفي[2] ، وذهب هؤلاء إلى الجزم المطلق أن إطلاق الكلمة لم يتعد الثلاثة ، و أن الكلمة لم تخرج من نطاق الكوفة ؛ و أنها إفرادا و جمعا أطلقت في الكوفة ، و منها انتشرت في بقية البقاع . [3]، وخالف هذا شيخ الإسلام ابن تيمية الذي ذهب إلى أن الكلمة أول ما ظهرت في البصرة من بني دويرة بعض أصحاب عبد الواحد بن زيد 150هـ ، وهو واحد من أصحاب الحسن، و قد كان في البصرة من المبالغة في الزهد و العبادة و الخوف و نحو ذلك ما لم يكن في سائر أهل الأمصار، و لهذا كان يقال : فقه كوفي و عبادة بصرية . [4]

مما تقدم نتلمس اختلافا بشأن المكان الذي أطلق فيه لفظ التصوف ، إلا أن الاختلاف أشد و أحد في الأصل اللغوي لكلمة تصوف ، فقد تضاربت الآراء قديما و حديثا ، و ذهب فيه العلماء و المؤلفون كل مذهب ؛ بين داع للكف عن الشقاق و الوقوف موقف التسليم عن إبداء الرّي ، و بين مفند للاشتقاقات البعيدة عن مقتضى اللغة ، فكان مما ذكروا : أن لا شيء يشهد لهذا الاسم من حيث العربية قياس ولا اشتقاق ، و من ذلك قول القشيري النيسابوري : هذه التسمية غلبت على طائفة ، فيقال رجل صوفي ،ولمجاعة صوفية ومن يتوصل إلى ذلك يقال له

متصوف ، ولجماعة المتصوفة ، وليس يشهد لهذا الاسم من حيث العربية قياس ، والقياس والأ ظهر فيه أنه كا للقب ،فأما قول من قال : إنه من الصوف ،وتصوف إذا لبس الصوف كما يقال تقمص إذا لبس القميص فذلك وجه ولكن القوم لم يختصوا بلبس الصوف،ومن قال : إنهم منسوبون إلى صفة مسجد رسول الله ﷺ ، فالنسبة إلى الصفة لاتجئ على نحو الصوفي ، ومن قال : إنه من الصفاء ، فاشتقاق الصوفي من الصفاء بعيد في مقتضى اللغة ، و قول من قال : إنه مشتق من الصف ، فكأنهم في الصف الأول بقلوبهم من حيث المحاضرة من الله تعالى ، فالمعنى صحيح و لكن اللغة لا تقتضي هذه النسبة إلى الصف ثم إن هذه الطائفة أشهر من أن يحتاج في تعينهم إلى قياس لفظ و استحقاق اشتق [معتبرا أن الناس لما تكلموا عن التصوف ما معناه ، و في الصوفي من هو ؟ كل عبر بما وقع له] [5]،و من بين الذين تكلموا عن التصوف و عن معناه أبو نصر السراج الطوسي صاحب كتاب اللمع تـ 378هـ ، و هو واحد من كبار المتصوفة و قادتهم ، فقد نظر إلى الكلمة نظرة الخبير بمعناها ؛ الواعي بمدلولها المدرك لأصلها قائلا: [[إذا سأل سائل فقال : قد نسبت أصحاب الحديث إلى الحديث ، و نسبت الفقهاء إلى الفقه ، فلم قلت الصوفية و لم تنسبهم إلى حال ، و لا إلى علم ، و لم تضف إليهم حالا كما أضفت الزهد إلى الزهاد و التوكل إلى المتوكلين ، و الصبر إلى الصابرين ؟ فيقال لهم : لأن الصوفية لم ينفردوا بنوع من العلم دون نوع ، و لم يترسموا برسم من الأحوال و المقامات دون رسم .... وذلك لأنهم معدن جميع العلوم و محل جميع الأحوال المحمودة ، و الأخلاق الشريفة سالفا و مستأنفا ، و هم مع الله في الانتقال من حال إلى حال مستجلبين للزيادة ، فلما كانوا في الحقيقة كذلك لم يكونوا مستحقين اسما دون اسم ، فلأجل ذلك ما أضفت إليهم حالا دون حال ، و لا أضفتهم إلى علم دون علم ، لأني لو أضفت إليهم في كل وقت حال ما وجدت الأغلب عليهم من الأحوال و الأخلاق و العلوم و الأعمال ، وسميتهم بذلك ، و لكان يلزم أن أسميهم في كل وقت باسم آخر ، و كنت أضفت إليهم في وقت حالا دون حال على حساب مايكون الأغلب عليهم ، فلما لم يكن ذلك نسبتهم إلى ظاهر اللبسة ، لأن لبسة الصوف دأب الأنبياء عليهم السلام ، و شعار الأولياء و الأصفياء ، و تكثر في ذلك الروايات و الأخبار ، فلما أضفتهم إلى ظاهر اللبسة كان ذلك اسما مجملا ، عاما ، مخبرا عن جميع العلوم و الأعمال ، و الأخلاق الشريفة المحمودة ، ألا ترى أن الله ذكر طائفة من خواص عيسى عليه السلام ، فنسبهم إلى ظاهر اللبسة فقال عز و جل : [[إذ قال الحواريون]] المائدة 112 ، و كانوا يلبسون البياض, فنسبهم إلى نوع من العلوم و الأحوال التي كانوا بها مترسمين ؟ فكذلك الصوفية عندي ،– و الله أعلم – نسبوا إلى ظاهر اللبسة ، و لم ينسبوا إلى نوع من أنواع العلوم الأخرى ... [6],و الظاهر من هذا القول إن الطوسي يقر أن الصوفية سموا بهذا الاسم نسبة إلى لبس الصوف , و هو بذلك يخالف القشيري الذي أنكر ذلك بقوله :

فأما قول من قال : إنه من الصوف , و تصوف إذا لبس الصوف كما يقال: تقمص إذا لبس القميص , فذلك وجه ولكن القوم لم يختصوا بلبس الصوف [7],ووافق شيخ الإسلام ابن تيمية القشيري حينما سئل عن لفظ الصوفية , فقال : [أما لفظ الصوفية فإن لم يكن مشهورا في القرون الثلاثة ، و إنما اشتهر التكلم به بعد ذلك ، و قد نقل التكلم به عن غير واحد من الأئمة و الشيوخ ،كالإمام أحمد ، و أبي سليمان الداراني ، و غيرهما ، و قد روي عن سفيان الثوري أنه تكلم به ، و بعضهم يذكر ذلك عن الحسن البصري ، و تنازعوا في المعنى الذي أضيف إليه الصوفي ، فإنه من أسماء النسب ؛ كالقرشي و المدني و أمثال ذلك . فقيل : إنه نسبة إلى أهل الصفة و هو غلط ؛ لأنه لو كان كذلك لقيل : صوفي ، و قيل : نسبة إلى الصف المقدم بين الله ، و هو أيضا غلط ؛ فإنه لو كان كذلك لقيل : صفي ، و قيل : نسبة إلى الصفوة من خلق الله و هو غلط ؛ لأنه لو كان كذلك لقيل : صفوي ، و قيل : نسبة إلى صوفة بن بشر بن أد بن طابخة ؛ قبيلة من العرب كانوا يجاورون مكة في الزمن القديم كان ينسب إليهم النساك ، و هذا و إن كان موافقا للنسب من جهة اللفظ ، فإنه ضعيف أيضا ؛ لأن هؤلاء غير مشهورين في زمن الصحابة و التابعين و تابعيهم أولى ؛ و لأن غالب من تكلم باسم الصوفي لا يعرف هذه القبيلة ولا يرضى أن يكون مضافا إلى قبيلة في الجاهلية لا وجود لها في الإسلام [8] , وواصل شيخ الإسلام قوله مفندا من ذهب إلى أن التصوف نسبة إلى لبس الصوف و هو دأب الصالحين و المرسلين بقوله : و قد روي أبو الشيخ الأصبهاني بإسناده عن مُحَمَّد بن سيرين أنه بلغه أن قوما يفضلون لباس الصوف ، فقال : إن قوما يتخيرون الصوف ، يقولون : إنهم متشبهون بالمسيح ابن مريم ، و هدي نبينا أحب إلينا ، و كان النبي (ص) يلبس القطن و غيره ... [9], و من بين الذين دعو إلى الكف عن الشقاق و التسليم عن إبداء الرأي الشيخ حسن رضوان صاحب كتاب روض القلوب المستطاب ، و ذلك في نظمه القائل فيه : [10]

و قد جرى من حيث الاشتقاق في لفظة التصوف الشقاق
وكل ذي قولة له توجيه لقوله في نفسه وجيه
و لكن القياس و القواعد في جملة الأقوال لا تساعد

والبعض منهم قد يقوي قوله بالأخذ من صوف بلبسهم له

فقولهم هذا و إن يكن وجد له قياس في كلامهم عهد
لكن أهل الحق لم يختصوا بلبسه و لا عليه نصوا
فالأحسن التسليم في أقوالهم لهم وفي ماكان من أحوالهم
فإنهم أجل من أن تفتقر أقوالهم إلى قياس مشتهر
أو اشتقاق إذ لهم قانون ساروا به و سرهم مكنون
فليس إلا الكف و التسليم و فوق كل عالم عليم

و ما يخلص إليه الواحد من هذا الجدل و الشقاق بشأن الاشتقاق أن هذه الكلمة – التصوف – لا يشهد لها اشتقاق من جهة العربية و لا قياس , و الظاهر أنها لقب .

3- المفهوم الاصطلاحي للتصوف :

ذهب العلامة ابن خلدون وغيره كثير إلى أن التصوف بوصفه علما من العلوم الشرعية الحادثة في الملة و أصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة و كبارها من الصحابة و التابعين من بعدهم ; طريق الحق و الهداية و أصلها العكوف عن العبادة و الإنقطاع إلى الله تعالى و الإعراض عن زخرف الدنيا و زينتها و الزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة و مال و جاه ...[11], و إذا كان علم التصوف من العلوم الحادثة , فاللافت للانتباه أن الغزالي أبا حامد المعروف بطول الباع في هذا العلم تجنب استعمال لفظ التصوف في كتابه إحياء علوم الدين , فلم يذكره إلا عرضا كما أنه لم يستعمل من المصطلحات الصوفية إلا الشائع منها; بل كثيرا ما كان يضع في مقابلها مصطلحات من عنده , كما تجنب ذكر المتصوفة بهذا الاسم و استبدله بأسماء عامة نحو الطالبين ، الصديقين ألخ [12] ,وقد عرف أبو مُحَمَّد الجريري التصوف لما سئل عنه بأنه : الدخول في كل خلق سني و الخروج من كل خلق دني [13] ,و لما سئل عنه الجنيد عرفه بقوله : هو أن يميتك الحق عنك , و يحييك به ، و عرفه أيضا بأنه ذكر مع اجتماع ووجد مع استماع و عمل مع اتباع[14]; أي هو أن يبتعد الإنسان عن هواه ويتوجه إلى مولاه ذاكرا له و محبا إياه سامعا قوله و متبعا أحسنه ، و متبعا كتابه و سنة نبيه ميقنا أن الخير كل الخير في الإتباع و الشر كل الشر في الابتداع, و عرفه مُحَمَّد بن علي القصاب قائلا : التصوف أخلاق كريمة ظهرت في زمان كريم من رجل كريم مع قوم كرام [15],و سئل رويم عنه فقال : التصوف هو استرسال النفس مع الله تعالى على ما يريد[16], و قال معرف الكرخي : التصوف الأخذ بالحقائق و اليأس مما في أيدي الخلائق [17], و لم يبتعد المزين عن هذه التعاريف , فأوجز التصوف في قوله : هو الانقياد للحق [18]; أي الانقياد لله, و قريب من هذا التعريف تعريف الأستاذ أبوسهل الصعلوكي ;إذ لخصه في قوله : هو الإعراض عن الاعتراض[19] ; أي الابتعاد عن اعتراض أوامر الله و عدم الأخذ بها , و عرفه السيوطي بأنه : تجريد القلب لله تعالى و احتقاره ما سواه [20],و جانبه تعريف الشيخ زروق المغربي حيث عرفه بقوله : هو صدق التوجه إلى الله بما يرضاه من حيث يرضاه [21] .

و بعد هذه الإلماحة التي سردنا فيها هذا الكم الهائل من تعاريف التصوف قديمها و حديثها, و قد يعيب عائب عنا هذا, و لكن الغاية المتوخاة من وراء ذلك تبين أن مفهوم هذا الكلمة من حيث الاصطلاح واضح; إذ جملة هذه التعاريف تقر أن التصوف هو الخلق الكريم, و بعبارة أدق; تقوى الله و هذا ما حدده ووصل إليه العلامة ابن القيم الجوزية في كتابه مدارج السالكين; حيث جمع كل ماضمته التعاريف السابقة في قوله : واجتمعت كلمة الناطقين في هذا العلم : أن التصوف هو الخلق, وجميع الكلام فيه يدور على قطب واحد . هو بذل المعروف وكف الأذى . قال ومن الناس من يجعلها ثلاثة: كف الأذى واحتمال الأذى وإيجاد الراحة ، ومنهم من يجعلها اثنين كما قال الشيخ : بذل المعروف وكف الأذى ، ومنهم من يردها إلى واحد وهو بذل المعروف, والكل صحيح[22] , ولم يقف عند هذا الحد; بل ذكر الأشياء التي يدرك بها كف الأذى ، واحتمال الأذى، وإيجاد الراحة ،فقال : [وإنما يدرك إمكان ذلك في ثلاثة أشياء :في العلم، والجود، والصبر] ، فالعلم يرشده إلى مواقع بذل المعروف و الفرق بينه و بين المنكر و ترتيبه في مواقعه, فلا يضع الغضب موقع الحلم ، و الجود : يبعثه على المسامحة بحقوق نفسه (...), فالجود هو قائد جيوش الخير ، و الصبر يحفظ عليه استدامة ذلك ، و يحمله على الاحتمال و كظم الغيظ وكف الأذى (...), وهو أكبر العون على نيل كل مطلوب من خير الدنيا و الآخرة قال تعالى : " و استعينوا بالصبر و الصلاة و إنها لكبيرة إلا على الخاشعين " [البقرة :45] [23].

فهذه الثلاثة أشياء بها يدرك التصوف و المتأمل لقول ابن القيم البديع الدقيق يجده يضع معادلة تبعد التصوف عن الترهات و الخزعبلات , فالمعادلة التي وضعها هي : علم + جود + صبر = تصوف .

وبهذا فالتصوف كما يرى حاجي خليفة علم يعرف به كيف ترقى أهل الكمال من النوع الإنساني في مدارج سعادتهم و الأمور العارضة لهم في درجاتهم بقدر الطاقة البشرية[24], و بعبارة أبسط هو العلم الذي يبحث في الجانب الأخلاقي و العاطفي من الثقافة الإسلامية[25] .

وجملة الأمر: أن الغرض من التصوف تلبية الخواء الروحي و النفسي الذي يعيشه الغربي في حياته الفكرية و حضارته المادية ، و الواقع أن التصوف يهدف إلى تهذيب النفس و ترقيق القلب و تنمية المراقبة الذاتية لله تعالى و المحاسبة الداخلية للسلوك ، ليبقى المسلم ملتزما بأحكام الشرع و منصرفا في أعماله و تصرفاته إلى مرضات الله تعالى و التزام الجادة القويمة في الشرع و إخلاص النية و القصد في الأعمال و البعد عن الرياء و المعاصي و ارتكاب المناهي[26]؛ أي هو السير إلى الله في الطريق الذي حدده لمرضاته ، ومعنى هذا الانتقال من نفس غير مزكاة إلى نفس مزكاة ، ومن عقل غير شرعي إلى عقل شرعي ، ومن قلب كافر منافق أوفاسق أومريض أو قاس إلى قلب مطمئن سليم ، ومن روح شاردة عن باب الله غير متذكرة لعبوديتها وغير متحققة بهذه العبودية إلى روح عارفة بالله قائمة بحقوق العبودية له ،ومن جسد غير منضبط بضوابط الشرع إلى جسم منضبط شريعة الله عزوجل ، وبالجملة من ذات أقل كمالا إلى ذات أكثركمالا في صلاحها،وفي اقتدائها برسول الله [ص] قولاوفعلا وحالا [27].

4- نشأة التصوف وتطوره :

سبقت الإشارة إلى الشقاق والاختلاف الدائر بشأن اشتقاق لفظة التصوف،وسلف الذكر أن الإمام أبا حامد الغزالي تحاشى استعمال لفظة التصوف في كتابه إحياء علوم الدين ،وتجدر الإشارة في هذا المقام أن الدارسين ذهبوا إلى أن التصوف الإسلامي أثرت فيه- إلى حد ما - عوامل أجنبية مسيحية أو هندية أو فارسية أو يونانية إلى جوار العوامل الإسلامية أيضا ...[28], وهذا ما يدفعنا للتحقيق في نشأة التصوف وتطوره, وبهذا الشأن ذهب أحد الباحثين إلى أن التصوف يختلف عن بقية العلوم في نشأته وتطوره، وذالك أنه لم يعرف نهائيا بهذا الاسم وبهذا العلم في القرن الأول؛ بل عرف باسم الزهد والعبادة في القرن الثاني والثالث الهجري ،وأخذ حدوده وأبعاده في نهاية القرن الثالث ، وظهر فيه التطرف والإفراط بعد ذلك ودخل حيز الفلسفة ثم بدأ يتراجع و يقترن بالأخلاق والتربية في عصرنا الحاضر[29], ولتفصيل تطورهذا العلم إليك هذه النقاط الموجزة : [30]

1- لم يعرف علم التصوف في العهد النبوي ، ولا في العهد الراشدي ، ولا في العصر الأموي ولا في مطلع الخلافة العباسية .

2- بدأت معالمه في النصف الثاني الهجري, وأول من سمي بالصوفي أبو هاشم الصوفي المتوفى سنة [150هـ] .

3- كان الزهد البذرة الأولى للتصوف، وظهر الزهد منذ مطلع القرن الثاني الهجري، وصنف فيه كبار العلماء، وعد المتصوفة هذه الكتب أصولا ومنطلقات لهم .

4- يعد الحسن البصري [110هـ] أهم رواد المتصوفة كما تعتبر كتبه من أوائل المصنفات التي تتضمن عبارات كثيرة وصيغا متعددة تحث على الزهد.

5 – في هذه الفترة ظهر كبار الزهاد منهم محمد بن سرين[110هـ] ، وأبو حازم سلمه بن دينار المخزومي [140هـ] وسابق بن عبد الله البربري ، وعبد الله بن المبارك [181هـ] والمعافى بن عمران [185هـ] والفضيل بن عياض [187هـ] ، ومعروف الكرخي [200هـ]، وبشر بن الحارث الحافي [227هـ] والحارث بن أسد المحاسبي [249هـ]، وأبو زيد البسطامي [261هـ] . وأبو بكر الوراق [280هـ] ، وأبو القاسم الجنيد [298هـ] وغيرهم .

6- وفي القرن الثالث الهجري والقرن الرابع تزاوجت العلوم الإسلامية بالثقافات الأجنبية (...)،وتأثر بعض الناس بالفلسفات المتعددة والأفكار الدينية الأخرى وخاصة تعاليم الإشراقين ، وتسربت كثير من الاصطلاحات كتب حكمة الإشراق إلى الزهاد ، ودخلت كتب الزهد والتصوف ، وصدرت عن لسان عدد منهم كالحلاج ...

5 –مراحل التصوف :

للتصوف مرحلتان أساسيتان متميزتان هما: مرحلة ما قبل التدوين ومرحلة التدوين [31].

مرحلة ما قبل التدوين : وفي هذه المرحلة كان رجال التصوف وإن لم يعرف بهذا الاسم آنذاك ، يعنون بالجانب العملي من العبادة ويتلقون أحكام التصوف ومبادئه وتعريفاته من صدور الرجال وسلوكهم اليومي لا من الكتب .

مرحلة التدوين : وهي المرحلة التي شغل فيها الصوفية بإلقاء الضوء كتابة على سلوك السابقين وتوجيه الأنظار إلى مفهوماتهم فيما أشكل على الناس من ألفاظ كانت تدور بينهم ، مثل : المقام – الحال – البسط ...الخ

6 –أنواع التصوف: من ينعم النظر في نشأة التصوف وتطوره يدرك أنواع التصوف، فيجعله نوعان: تصوف فلسفي وتصوف أخلاقي تربوي [32].
التصوف الفلسفي :وهذا النوع مرفوض من أساسه ، وإذا درس فإنما يدرس للرد عليه, وتبين فساده ومنافاته للإسلام ، ويراد بالتصوف الفلسفي القائم على فكرة [[الحلول]] أو [[وحدة الوجود]] .
التصوف الأخلاقي التربوي: وهذا هو التصوف الحق الذي قال فيه ابن القيم في المدارج – كما سبق الذكر [اجتمعت كلمة الناطقين في هذا العلم على أن التصوف هو الخلق]، وعبر عنه الكتاني بقوله : [التصوف خلق فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في التصوف].
7 – التصوف في الواقع والممارسة : يعد التصوف من أكثر العلوم جدلا بين المسلمين ، فمنهم من ذهب إلى أن التصوف جوهر الإسلام و ذروة الكمال في الإيمان و السلوك و التربية و التهذيب و يحقق الصلة بين الخالق و المخلوق و بين العبد و ربه (...), بينما رأى آخرون أن التصوف دخيل على الإسلام و المسلمين , و أنه من البدع الخطيرة التي تسربت إلى المجتمع لتفت عضده،و تشل حركته ,و تشوه تعاليمه, و تجمد نشاطه [33]، فالتصوف عندهم هو رأس البلاء و سبب الفساد [34].
لكن المتفحص للتراث العربي قديمه و حديثه يجد أن التصوف يحظى بمكانة و حظوة في الثقافة الإسلامية , ولهذا دلائل كثيرة ,و في مقدمة هذه الدلائل أن شيخ الإسلام الذي وصفه بعض الناس بالتشدد و هو غير ذلك,وإنما ذلك لضعفهم و قصر باعهم في فهم نصوصه و مؤلفاته ، فقد أفراد شيخ الإسلام رحمه الله جزءا كاملا من مجموعة فتاويه – الجزء الحادي عشر – للتصوف ، و حديثا كتب الشيخ سعيد حوى سلسلة التربية والسلوك متألفة من ثلاثة كتب (تربيتنا الروحية / المستخلص في تزكية النفوس / مذكرات في منازل الصديقين و الربانين)،و كان من بين الأسباب التي دعته إلى كتابة هذه السلسة كما يقول هو [35]:
حاجة الحركة الإسلامية المعاصرة ، متمثلة في علماء الإسلام ودعاته إلى نظرية واضحة عن التصوف , و عن السير الروحي بآن واحد .
ندرة الكتاب الصوفي المحرر على ضوء عقيدة أهل السنة و الجماعة و مذاهبهم الفقهية .
إن كثيرين ممن كتبوا في هذا العلم جعلوه علم الخاصة مع أنه العلم الذي يطالب به كل إنسان ، لارتباطه بقضايا يطالب بها كل إنسان كصحة القلب ، و زكاة النفس ...
أن هذا العلم في مسيرته التاريخية اختلط فيه أكثر من أي علم آخر أمور جعلته كالألغاز, و جعلته أحيانا و كأنه شيء آخر غير العلم و غير النصوص , و جعلته أحيانا مستقلا عن علوم التوحيد و الفقه و أصول الفقه; بل جعلته أحيانا إلهاميا له قوة الوحي في التشريع أو التقرير, و كل ذلك عجيب غريب في علم يجب أن يكون كبقية العلوم الإسلامية محررا منقحا .
أن أكثر المشتغلين بهذا العلم تصوراتهم الإسلامية قاصرة ومفاهيمهم ضيقة و يعيشون بعيدا عن عصرهم وعن بديهيات في الإسلام لاينبغي أن تغيب عن مسلم معاصر .
لكن في الوقت نفسه نشير إلى أن التصوف شابته بعض الانحرافات قديما و حديثا, فصار التصوف الحق شيء , و الواقع و الممارسة شيء آخر , فمن الانحرافات الفكرية و السلوكية قديما فكرة الفناء ؛ و فكرة الفناء هي أبعد ما يكون من أخلاق الحياة كما قررها القرآن بآياته , و النبي بسلوكه و حديثه , والصحابة بممارساتهم المختلفة التعبدية منها و الدنيوية ،و إلى جانب هذا ففكرة الفناء لا تستقيم قط مع عقيدة التوحيد [36].
أما في الوقت الحالي فكثيرا ما تبتعد ممارسة التصوف عن التصوف الحق ، إذ بات الناس يفهمون أن التصوف عبارة عن شطحات و تمائم و تمسح بأضرحة و حمل سبح ، و إقامة وعدات وولائم ، و بعضهم فهم أن التصوف اعتزال الناس و ارتداء الثياب الرثة الوسخة القذرة ، و الإسلام و التصوف براء من هذه السلوكات , و الحقيقة أن التصوف كما ذكرنا سابقا هو السير إلى الله بما يرضاه ," و الحقيقة أن التصوف المغالي لا يقبل بحال من الأحوال ، وأن المبادئ الغريبة عن الدين يجب تركها والتخلي عنها(...), أما تربية الروح، وتهذيب النفس، ومراقبة الله وعدم التعلق بالدنيا, فهي من الإسلام سواء سميت عبادة أم زهدا، أم ورعا, أم تصوفا " [37].
- فوائد التصوف: من العدل والإنصاف تبيين أن التراث الصوفي على ما فيه من مآخذ، فيه ما فيه من الفوائد التي لا تنكر ومنها :[38].
1-أنه يجمع بين كثير من أقوال الصالحين وحكم الزهاد والعباد وأهل التقوى والبصيرة.
2-أن فيه لفتات روحية مشرقة في فهم الآيات والأحاديث والتعليق عليهالا توجدعند غيرهم .
3-أن الصوفية- حين عنى الفقهاء بإحكام الظاهر المحس ، والمتكلمون بالجانب العقلي الجاف- عنوهم بإحكام الباطن، ودراسة آفات النفوس، ومداخل الشيطان إليها, وكيفية وقايتها وعلاجها،ولهم في ذلك من الممارسات والتجارب والمعارف ما ليس لطائفة غيرهم.

4 –أن في أقوالهم حرارة وحيوية يلمسها قارئها،ولعل ذلك نتيجة المجاهدة النفسية و الرياضة الروحية التي يعانونها, و ليست النائحة كالثكلى .

5- أن الصوفية الأوائل وضعوا أسس التصوف و مهدوا طريقه , ورفضوا كل محاولة لإخراجه عن الشرع , وأبوا إلا تقييده بالقرآن و السنة .

9- مجالات التصوف :

لعلم التصوف مباحث رئيسة; إذ يبحث في الروح و القلب و العقل و النفس و إليك المخطط الآتي الذي يوجز مجالات التصوف الأصيلة :[39]

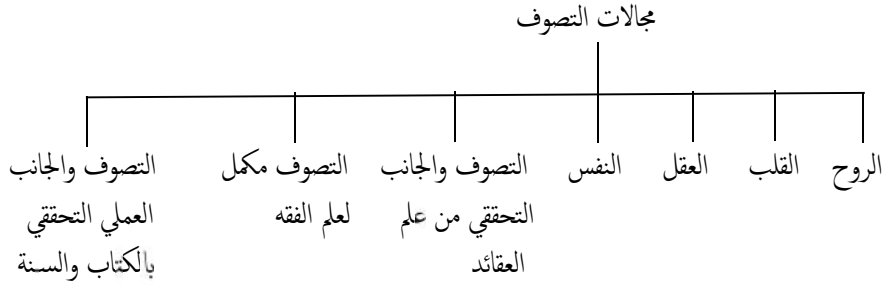

1-الروح في علم التصوف : الروح في أصل الخلقة عارفة بالله مقرة بالعبودية معترفة أنه ربها, ولكنها بمخالطة الجسد تطرأ عليها الطوارئ, فتفقد من معرفتها و عبوديتها .

2- القلب في علم التصوف : القلوب تعمى وتقسو و تمرض و يصيبها الختم و يصيبها الران ,و للقلب وضعه الصحي الذي يكون به سليما, و إذا صلح القلب صلح الجسد كله .

3- العقل في علم التصوف : ذهب الشيخ سعيد حوى في كتابه تربيتنا الروحية أن الناس قسمان : قسم فقهوا عن الله, و عقلوا خطابه فآمنوا به والتزموا به, فهؤلاء هم العقلاء حقا ,و فريق لم يفقه عن الله و لم يلتزم, فهؤلاء لم يحصلوا العقل الشرعي .

4- النفس في علم التصوف : نقطة البداية في الصحة النفسية أو المرض النفسي عدم الرضى عن النفس قال ابن عطاء الله في الحكم: (أصل كل معصية وشهوة و غفلة الرضى عن النفس و أصل كل طاعة و يقظة و عفة عدم الرضا عنها, ولأن تصحب جاهلا لا يرضى عن نفسه خير لك من أن تصحب عالما يرضى عن نفسه ...) ، و قال الشيخ زروق : (و أصول الأخلاق المذمومة ثلاثة : الرضا عن النفس و خوف الخلق و هم الرزق ...)

5- التصوف و الجانب التحققي من علم العقائد : علم العقائد هو الذي يقيد التصوف, و علم التصوف هو المكمل له من حيث إنه الجانب التحققي فيه, فإن حدث و أن ناقضه أو أوجد عقائد جديدة تخالف الكتاب و السنة أو تخالف أهل السنة و الجماعة كما ورثت عن السلف فهذا هو الانحراف و الزيغ و الابتداع الخبيث .

6- التصوف كمكمل لعلم الفقه : نوجز معنى هذا في قول الفقهاء قديما : (من تفقه و لم يتصوف فقد تفسق, ومن تصوف ولم يتفقه فقد تزندق, و من جمع بينهما فقد تحقق) .

7- الجانب العملي التحققي بالكتاب و السنة : فالعلماء العاملون ، و الصوفية المحققون هم الذين اجتمع لهم الفقه و التحقق بآن واحد (...), فالفقه الصحيح للنصوص, و التحقق الصحيح بها يمثل الأخذ الكامل بالكتاب و السنة (...) ,ولا يأتي الخلل إلا من فهم خاطئ أو قاصر أو تحقق قاصر أو ناقص (...) ,و الطامة الكبرى عندما يجتمع فهم خاطئ و تحقق خاطئ, و بهذا فالمجال الصحيح للتصوف الصحيح هو التحقق الصحيح بالنصوص على ضوء الفهم الصحيح .

10-نتائج :

1- التصوف علم شريف ;إذ هو الخلق, و هو من العلوم الحادثة في الإسلام .

2- تعددت أسماء التصوف فهناك من يسميه عبادة أو زهدا أو ورعا ... ,و قولنا في هذا المقام قول المناطقة : إذا عرف المفهوم فلا مشاحة في الاصطلاح .

3- التصوف لا أصل له في الاشتقاق, و الصواب أو مجانبه أنه لقب .

4- علماء الإسلام و أئمة الهدى لم ينكروا التصوف ,و لكن أنكروا الانحراف و الزيغ الذي تسرب إلى هذا العلم, و إفراد شيخ الإسلام ابن تيمية جزءا كاملا للتصوف, و كذا مؤلفات تلميذه ابن القيم دلائل على ذلك .

5- الفقه شرط ضروري للمتصوف و للإنسان الذي يرغب في الإطلاع على كتب التصوف .
6- الرجوع إلى كتب التصوف التي ينصح بها أهل العلم و الابتعاد عن الكتب التي شابها الانحراف و الزيغ و التجاوز و الابتداع .
7- تحرير التصوف من دخنه لتكون لدى المسلم مناعة ضد الوقوع في أسر جاهل أو جهل من أجل الوصول إلى تربية روحية رفيعة وواقعية .
8- يجب أن ينتقى من التصوف ما يخدم العقيدة الإسلامية و الأخلاق الإسلامية ,و يترك ما فيه شائبة أو ريبة, وينتفع في ذلك بمن نقد الصوفية مثل ابن الجوزي صاحب كتاب تلبيس إبليس وغيره .

11- خاتمة : إن العالم الآن في مسيس الحاجة إلى قيم الإسلام السمحة و إلى علم التصوف الذي يسير بالإنسان سيرا روحيا و سلوكيا و خلقيا و تربويا, و قد أعلنت الحضارة الغربية عن إفلاسها روحيا بسبب طغيان المادة, و هذا ليس تجني عليها ,فقد أقر ألكسيس كاريل بذلك في كتابه (الإنسان ذلك المجهول); إذ ضمنه شهادة ضد الحضارة المادية ,ففي فصل حاجتنا الروحية قال : (ونستطيع كذلك أن نتحدث ببلاغة عن التقدم المادي الذي حققناه و عن روائع الإنتاج الاجتماعي و عدد السيارات و أجهزة الراديو و التلفيزيون التي يمتلكها أفراد شعبنا ... و لكن المبالغة في وصف الماديات تعطي البعض فكرة بأننا قد أفلسنا من الناحية الروحية ...) [40] .

الهوامش و الإحالات :

المستقبل لهذا الدين ،سيد قطب،دار مداني، دط ، دت ، ص : 74.
ينظر: في الزهد و التصوف حسن الشيخ الفاتح الشيخ قريب الله ,دار الجيل, بيروت,ط1، ص : 43.
نفسه ، ص: 45.
ينظر مجموعة الفتاوى ،تقي الدين أحمد بن تيمية الحراني ، تخريج الأحاديث ، عامر الجزار ،أنور الباز ، ج 11 ، التصوف و القرآن كلام الله ، دار الجيل ، ط1 ، 1997 ، ص:07 .
ينظر: الرسالة القشيرية في علم التصوف ,ابو القاسم عبد الكريم بن هوازم القشيري النيسابوري ,تحقيق ودراسة هاني الحاج ,المكتبة التوفقية ,دط,دت, ص : 385 .
في الزهد و التصوف ، ص 47 – 48 .
ينظر:الرسالة القشرية ، ص : 385 .
مجموعة الفتاوى, ص : 07.
نفسه ، ص: 07 .
10-في الزهد و التصوف ، ص : 50 – 51
11-ينظر : تاريخ ابن خلدون المسمى كتاب العبر و ديوان المبتدأ و الخبر في أيام العرب و العجم و البربر و من عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر ، عبد الرحمان بن خلدون منشورات محمد علي بيضون ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ج1 ، ط1 ، 1992 ، ص : 514.
12-ينظر : العقل العربي ، دراسة تحليلية نقدية لنظم القيم في الثقافة العربية – نقد العقل العربي (04) ,محمد عابد الجابري ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ط1 ، 2001 ، ص: 586.
13-ينظر : الرسالة القشيرية في علم التصوف ، ص: 385 .
14-ينظر المصدر نفسه ، ص: 386 .
15-نفسه ، ص: 386 .
16-نفسه ، ص: 386 .
17- نفسه ، ص: 386 .
18- نفسه ، ص: 387.
19 نفسه ، ص: 388 .
20- ينظر : تعريف عام بالعلوم الشرعية ، محمد الزحيلي ، دار الكوثر للنشر و التوزيع ، الجزائر طبعة خاصة ، الجزائر ، دط ، دت ، ص : 189 .
21-الأمير عبد القادر الجزائري متصوفا و شاعرا ، فؤاد صالح السيد ، المكتبة الوطنية للكتاب ، دط ، دت ، ص: 114.
22-ينظر : مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد و إياك نستعين ، إبن قيم الجوزية ، تحقيق و تعليق : محمد المعتصم بالله البغدادي ، دار الكتاب العربي ، بيروت لبنان ، ط1 ، 2004 ، ص:590 .
23-نفسه ، ص: 590 .
24-ينظر : تعريف عام بالعلوم الشرعية ، ص: 189 .
25-ثقافة الداعية ، يوسف القرضاوي ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ط 13 ، 2004 ، ص :81 .
26-ينظر : تعريف عام بالعلوم الشرعية ، ص:191 .
27-ينظر : تربيتنا الروحية ، سعيد حوى ، التصوف على ضوء الكتاب و السنة ، دار السلام للطباعة و النشر و التوزيع و الترجمة ، ط 7 ، 2004 ، ص: 62 .
28-ينظر : ثقافة الداعية ، ص: 81.
29-ينظر : تعريف عام بالعلوم الشرعية ، ص: 192 .
30-نفسه ، ص: 192-196 .
31-ينظر : في الزهد و التصوف ، ص: 55 و ما بعدها.
32-ينظر : ثقافة الداعية ، ص: 82.
33-ينظر : تعريف عام بالعلوم الشرعية ، ص:198-199 .
34-تربيتنا الروحية ، ص: 07.
35-نفسه ، ص:05 -06.
36-ينظر : العقل الأخلاقي العربي ، ص:428-429 .
37- تعريف عام بالعلوم الشرعية ، ص: 200 .
38-ثقافة الداعية ، ص: 82 -83 .
39-ينظر: تربيتنا الروحية ، ص : 43 – 60.
40-المستقبل لهذا الدين ، ، ص:71 .

ISSN 2170-0796